في قضية الدكتور جيفاغو !

بقلم رئيف خوري

حالت ظروف انعقاد مؤتمر الكويت للادباء العرب واصدار العدد الممتاز من «الآداب» دون نشر شيء في المجلة حول قضية « الدكتور جيفاغو » الهامة . و « الاداب » تنشر اليوم هذا المقال للاستاذ رئيف خوري تاركة للادباء ان يناقشوه بكل حرية .

« الآداب »

سيدة لبنانية جلست امامي في احدى حافلات القطار الكهربائي ، وراحت تقول لجارتها وانا اسمع :

ـ سمعت ، يا عزيزتي ، بالدكتور جيفاغو ، دكتوروسي عظيم ! اضطهدته الشيوعية ، وقام العالم وقعد ! « ها » الفظاعة .

ردت السيدة الاخرى :

ـ شو قتلوه ؟

ـ لا ! هرب الى لبنان بلد الحرية !

ـ وفتح عيادة في بيروت ؟ ان شاء الله يكون طبيب معدة . . .

وغطت السيدة المحترمة . فمها بمنديل لتتجشأ .

ما اعتقد ان خيال الشاعر بوريس باسترناك كان يمكنه ان يتصور لمخلوقه الدكتور جيفاغو مثل هذه النهاية التي انتهت اليها مغامراته في ذهن سيدة من سيدات وسطنا الراقي .

اني لم اطلع على هذه « الحياة » حياة الدكتور جيفاغو التي من اجلها منح باسترناك جائزة « نوبل » للاداب . ولما كان مخلوق باسترناك لم يتجسد، بضرب من السحر، لحما ودما ، ولم ينتقل الى بيروت ، ليفتح فيها عيادة ، كما تمنت سيدتنا المصابة بسوء الهضم ، فاني لااستطيع ان ارى فيه رايا . لكني مطلع على بعض شعرباسترناك مترجما الى الانكليزية . وهو شعر لا يوحي بان باسترناك اديب في مستوى جائزة « نوبل » على نحو ما نتصور مستوى هذه الجائزة . وقد يكون ان الترجمة نالت من روعة شعره . وقد يكون ان باسترناك كاتب روائي اكبر منه شاعرا . هذان احتمالان جائزان . غير اني مع هذا اميل الى الاعتقاد بان كتاب باسترناك لم يمنح الجائزة الا للون من الوان الدعاوة السياسية . يؤيد هذا الاعتقاد ما قد رافق اهتمام «الغرب» بكتاب باسترناك ، وبالجائزة التي بذلت له ، من استغلال لا شك في طابعه السياسي المخض . وهذا ما يفقد الجائزة قيمة دلالتها من حيث المقياس الادبي ، ويؤكد ان «الغربيين» والادباء السوفياتيين يقف كل فريق منهم للاخر بالمرصاد ، وينقل معارك «الحرب الباردة » الى كل مجال يرى فيه امكان الاستغلال السياسي، حتى مجال تقييم الاثار الادبية .

وينبري الادباء السوفياتيون ليناقشوا باسترناك الحساب العسير . فهو في نظرهم قد اساء تصوير ثورة اكتوبر الاشتراكية الكبرى ، وجرح الشعوب السوفياتية في امجد احداث تاريخها . واني ارى من حق اي اديب سوفياتي، او غير سوفياتي ، ان يناقش باسترناك ويأخذ عليه المآخذ فيما يتعلق بمسؤولية الاديب ان لا يسيء الى عزيز على شعبه ، وغير شعبه . ولا يغير من هذا الحق شيئا ان الاديب قد اساء فعلا او لم يسيء . فان له ولغيره الحق ان يتصور انه لم يسيء ثم لا ينقض هذا حق غيره ان يعتقد انه قد اساء . ومرجع الامر كله يبقى الى الاقناع بوسائل الاقناع !

لقد استعمل الادباء السوفياتيون كثيرا من اللفظ الفج في نقد باسترناك . وهذا اسلوب قد نوافقهم عليه او لا نوافقهم ، لكننا لا ننكر عليهم حقهم في اتباعه اذا اختاروا اتباعه . ولا ننكر عليهم حقهم حتى في اخراج باسترناك من صفوفهم . فلكل هيئة ان تحاكم عضوا او عددا من اعضائها ، وتطبق عليهم احكامها .

اما ان يطلب الادباء السوفياتيون من الدولة ان تجرد باسترناك من جنسيته وتخرجه من وطنه ، فهذا ما لم نفهمه ولم نقره ! ففي ميدان الخلاف الادبي تتصادم الافكار، وتعترك الاقلام ، وهذا من الحرية في الصميم ، بل هو شرط اساسي لجلاء الحقيقة . فاما ان يستعدي الادباء الدولة على اديب او ادباء اية كانت خطيئتهم الفكرية ، فهذا ما لا يمكن قبوله الا في احوال الضرورة القصوى حين يكون مصير الوطن معلقا بشعرة ، وحين يصبح من واجب الاديب ان يقوم طائعا مختارا بفعل تنازل عن حريته الجزئية في سبيل حرية الكل بل في سبيل وجود الكل . وعندئذ، يكون تنازل الاديب عن حريته الجزئية هو الحرية عينها !

فاذا نظرنا الى الاتحاد السوفياتي اليوم ، وتأملنا واقع حاله ، وجدناه ابعد ما يكون عن الخطر الذي يجعل مصيره معلقا بشعرة . بل ان الدعائم التي ارستها ثورة اكتوبر الاشتراكية الكبرى اصبحت وراء متناول اية قوة في الارض تريد بها شرا . فلن يضيرها ان يستعمل اديب كباسترناك او غيره ، حريته الجزئية ، ليعرض بثورة اكتوبر ، مخطئا او مصيبا ، في رواية يكتبها .

فاستعداء الادباء السوفياتيين للدولة،اذا،على باسترناك غلو ذريع ، ليس له ما يبرره . بل هو اثر مترسب من ذهنية تكونت في الامس ، ثم فقدت اليوم سببها . وظهر ضررها . لكن بقي مع ذلك من يتشبث بها بفعل العادة .

ولقد كنت اسعد الناس حين عرفت ان الدولة السوفياتية اباحت لباسترناك ان يقبض الجائزة . ولم تجب الادباء السوفياتيين الى طلبهم ان يجرد من جنسيته ويطرد من وطنه .

كنت اسعد الناس لان الاتحاد السوفياتي قد مثل دائما في نظري التجربة الاشتراكية العظمى . . وانت تعرف ، ايها القاريء ، معنى هذا حين تذكر مدى ما يعنيه في الواقع تقدم الاشتراكية لتحررنا القومي وتحرر الانسانية . وانه لمن الفجيعة حقا ان يتعارض تطبيق فكرة العدالة الاجتماعية ، والتحرر الاقتصادي ، وهما فكرتان اساسيتان في الاشتراكية ، مع حرية الادب والتعبير ، برغم ما قد يندس في هذه الحرية من مظاهر شذوذ وانحراف ، يمكن ان تداوى ، ويجب ان تداوى ، بغير اللجوء الى سلطة الدولة في الاكراه .

لقد شاء بعضهم حين ضج لقضية باسترناك ، ان يظهر ان الاتحاد السوفياتي ، خلو من حرية التفكير ، فاثبت هؤلاء ان الاتحاد السوفياتي قد خطا في هذا السبيل ، سبيل حرية الفكر ، خطى فسيحة هي اصح دليل على مزيد القوة والثقة بالنفس .

وفيما نحن نوجس خوفا من يوم ياتي في هذا العالم الذي نسميه « الحر » ، يضيق فيه الحكام بكل حرية للفكر ، ويحاربونها على انها « شيوعية » ترانا نتوقع يوما ياتي في الاتحاد السوفياتي يستطيع فيه كاتب بملء الحرية ، في جريدة سوفياتية او مجلة او كتاب ، ان ينتقد الحكام السوفياتيين وهم في سدة الحكم ، وسواء أرأت الاكثرية ، انه مصيب في انتقاده ام غير مصيب .

ان النهاية التي انتهت اليها قضية باسترناك لتجعلنا مطمئنين الى اننا غير حالمين ، ولا واهمين ، فيما نتوقعه . فالدولة السوفياتية قد اكتفت بان تركت للشعب السوفياتي نفسه ، وللذين لا تغرهم الدعاوات السياسية ، في العالم كله ، ان يدركوا غرض الاستغلال السياسي الذي اقترن ببذل الجائزة لهذا الكتاب ، ايا كانت قيمته . ولقد ادرك باسترناك نفسه هذه الحقيقة ، وانف من ان يخضع اسمه لهذا الضرب من الاستغلال الذي يفسد القيم الادبية .

وفي الوقت الذي نأخذ فيه على الادباء السوفياتيين انقيادهم للاستفزاز حين طالبوا الدولة بتجريد باسترناك من جنسيته واخراجه من وطنه ، نطالب القائمين على جائزة « نوبل » للاداب ان يحرصوا على طابع للجائزة ينأى بها عن الانصياع للدعاوة السياسية ايا كان لونها .

رئيف خوري

الآداب

مجلة شهرية تعنى بشؤون الفكر

بيروت

ص.ب ٤١٢٣ ـ تلفون ٣٢٨٣٢

★

الادارة

شارع سوريا ـ راس الخندق الغميق ، بناية الاسمر

★

الاشتراكات

في لبنان وسوريا : ١٢ ليرة
في الخارج : جنيهان استرلينيان
او ٥ دولارات

في اميركا : ١٠ دولارات
في الارجنتين : ١٥٠ ريالا

الاشتراكات الرسمية : ٢٥ ل.ل. او ما يعادلها

تدفع قيمة الاشتراك مقدما
حوالة مصرفية او بريدية

★

الاعلانات

يتفق بشأنها مع الادارة

★

توجه المراسلات الى

مجلة الآداب ، بيروت ص.ب. ٤١٢٣